الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على عبده محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وَأَرْسَلَ اللهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: 165].

وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ؛ وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء: 165].

وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِا رَسُولا مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36]. وَافْتَرَضَ اللهُ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانَ بِاللهِ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: مَعْنَى الطَّاغُوتِ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ.

ذكر الشيخ هذه المسألة المتعلقة بإرسال الرسل، وإن كان أيضًا قد جرى لها ذكر سابق.

قوله: وَأَرْسَلَ اللهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ: و البشارة هي الإعلام المقرون بخبر سار، والنذارة هي الاعلام المقرون بخبر مخُوف، هذا الفرق بين البشارة والنذارة، ولا شك أن أنبياء الله تعالى بعثوا مبشرين ومنذرين، مبشرين من أطاع الله تعالى بالجنة، منذرين من عصى الله تعالى بالنار، قال تعالى {رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}[النساء: 165]، إذن الحجة الوحيدة التي يمكن أن يحتج بها الآدميون على ربهم عز وجل أن يقول قائلهم: ما جاءنا من بشير ولا نذير ؛ فقطع الله تعالى هذه الحجة ببعثة الرسل ، فلا يبقى للناس حجة إذا أرسل الله تعالى الرسل ، فالحجة الرسالية لا بد من قيامها، قال ربنا عز وجل: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: 15]، فإذا افترضنا أن قومًا أو فردًا لم تقم عليهم الحجة الرسالية ، فما حالهم؟ نقول : المحكمات تدل على أن الله تعالى لا يعذب إلا من قامت عليه الحجة، قد يقول قائل: كم مناطق نائية على نهر الأمازون في أمريكا الجنوبية ، وفي مجاهل استراليا ، وفي غابات أفريقيا لم يسمعوا بمحمد –صلى الله عليه وسلم– ولا بدين الإسلام، ثَمَّ أقوام ماتوا في الفترة لم يبلغهم رسالة نبي، ما حال المجهول؟ ما حال الطفل الذي مات في صغره؟ ما حال كذا وكذا؟؛ أجاب النبي –صلى الله عليه وسلم– عن هذا الإيراد؛ فقال: (أربعة يحتجون يوم القيامة: شيخ فانٍ مات قبل أن يُبعث الرسول، وصبي مات قبل أن يبلغ الحنث، ومجنون ليس له عقل، ورجل من أهل الفترة، فكل يدلي بحجته، ويقول: يارب كذا وكذا، قال: فيمتحنهم الله تعالى يوم القيامة، ويجعل نارًا ويقول: ادخلوا فيها، فإن هم أطاعوه نجوا، وإن هم أبوا، قال: إياي عصيتم فكيف برسلي؟!).

فنحن نعلم أنه لا يهلك على الله إلا هالك، وأن الله تعالى لا يظلم مثقال ذرة، هذا هو المحكم الذي نتمسك به ونعتصم به، ونعلم أن الله تعالى لا يوقع عذابًا بأحد حتى يقيم عليه الحجة الرسالية كما قال هاهنا : {لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ } [النساء: 165] ، وفي هذا دليل على بطلان الاحتجاج بالقدر بعض الناس يحتج بالقدر ، بعض الناس يحتج بالقدر، إذا قيل له : يا فلان لِمَ عصيت الله؟ قال: والله هذا شيء كتبه الله علي ، يا فلان لِمَ لمْ تفعل

شريء مما أمرك الله به، قال: ما كتبه الله لو كتبه الله لفعلته؛ فبعض البطالين العطالين يحتج بالقدر على ترك الواجبات وفعل المحرمات، فهل يتم استدلاله بالقدر على مرادهِ ويُعذر بهذه الحجة؟ لا؛ لأن الله تعالى لم يثبت إلا حجة واحدة يمكن أن يحتج بها الآدميون: {رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [النساء: 165] ، لو كان في القدر حجة؛ لقبل الله حجتهم لكن الله رد حجتهم؛ فأخبر الله تعالى عن هؤلاء المحتجين بالقدر أنهم يقولون : قال تعالى : {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم} [الأنعام: 148] فسمى الله دعواهم كذبًا، والكذب هو مخالفة الخبر للواقع، ثم قال: {حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا } [الأنعام: 148] ولو كان لهم حجة في القدر ما أذاقهم الله بأسه، ثم قال ثالثًا : { قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا } [الأنعام: 148]، يعني هل اطلعتم على كتابكم وقدركم السابق، وبناءً على اطلاعكم علمتم بأن هذا مكتوب عليكم؛ فسلكتم هذا السبيل ؟ لا والله ما اطلعوا على قدرهم مسبقًا ، إذن حقيقة الأمر : {إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ } [الأنعام: 148]، إذن لا حجة لكم في القدر، إذن هذه هي مهمة الرسل: البشارة والنذارة وقطع الطريق على الاحتجاج على الله عز وجل.

قوله: وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ : والدليل على أولية نوح قوله تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ} [النساء: 163] ، وقال نبينا –صلى الله عليه وسلم– في حديث الصور: (إن الناس يأتون إلى نوح ويقولون له : أنت أول الرسل إلى الأرض)[1]؛ إذن فقد ثبت بهذين النصين أن نوحًا عليه السلام أول نبي وأول رسول ، وقد ذكرنا لكم فيما مضى الفرق بين النبي والرسول ، وخلاف العلماء في تحديد هذا الفارق، وبهذا يتبين خطأ من زعم أن أول الأنبياء هو إدريس عليه السلام ، وهذا يوجد كثيرًا ، حتى إن الناس يتداولون بعض المصورات يسمونها شجرة الأنبياء ويكون مرسومًا فيها إدريس بين آدم وبين نوح عليه السلام ؛ فهذان النصان يثبتان أن أول الأنبياء وأول المرسلين: هو نوح عليه السلام، وأن إدريس جاء فيما بعد.

والدليل على أن خاتمهم محمد –صلى الله عليه وسلم– لم يذكره الشيخ هاهنا ، قال الله عز وجل {وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} [الأحزاب: 40]؛ إذن آخر الأنبياء هو محمد –صلى الله عليه وسلم– فلا نبي بعده بنص القرآن ، وكذلك قال–صلى الله عليه وسلم– في الحديث الصحيح : (سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي ثَلاَثُونَ كَذَّابُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي)[2]، فمن ادعى النبوة بعد نبينا –صلى الله عليه وسلم– ؛ فدعواه باطلة ، وأدعياء النبي هذا عددهم كما أخبر النبي –صلى الله عليه وسلم– ثلاثون، وقد وقع إدعاء النبوة في أواخر عهد النبوة ، إلى يومنا هذا لم يزل أدعياء النبوة يتواردون؛ فممن ادعى النبوة قبل وفاته –صلى الله عليه وسلم– مسيلمة، وبعد وفاته سجاح والأسود العنسي وطليحة بن خويلد الأسدي ، ولم يزل يخرج في مثاني التاريخ من يدعي النبوة كما ادعاها من تنتسب إليه البابي ة ومن ينتسب إليه البهائيون وكذلك القديانيون في الدول الشرقية، لم يزل يوجد من يدعي النبوة، والمقصود أن يكون ذلك الدَعِّي

(١) صحيح مسلم (194).

(٢) سنن الترمذي (2219)، صححه الألباني.

له أتباع وهيلمان ، أما المجانين الذين يدعون النبوة فهؤلاء لا حصر لهم كثر وليسوا في الحسبة المقصود من يدعي النبوة يكون له أتباع وطائفة فهؤلاء كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم– ثلاثون كذابون ، ولا أكذب من هؤلاء ؛ فالله قد أكذبهم ونبيه –صلى الله عليه وسلم– قد أكذبهم.

قال: وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِا رَسُولا مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِا رَسُولًا: إي والله، أقام الله الحجة على كل أحد، {وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} [فاطر: 24].

قال: وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِا رَسُولًا مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ ::هذه دعوى الأنبياء جميعًا، يقول الله عز وجل : {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ }[الأنبياء:25] ، هذا مشروع الأنبياء جميعًا.

قال: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36]: لا بد من اقتران هاتين الركيزتين معًا: الأمر بعبادة الله، واجتناب الطاغوت كما قال: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ} [البقرة: 256] ، لا يمكن إلا أن يجمع الإنسان بين الأمرين: الكفر بالطاغوت الذي يحصل به التخلية، والإيمان بالله الذي يحصل به التحلية، فلا بد من البراءة من الشرك تمامًا، وهذا هو الموافق للشق الأول من جملتي الشهادة: لا إله، ثم تتمتها بالإيمان بالله عز وجل: إلا الله، فالكفر بالطاغوت والإيمان بالله قضيتان متلازمتان لا انفكاك بينهما ، ولا يمكن أن يتصور مؤمن بالله وبالطاغوت في آنٍ واحد، هذان أمران لا يجتمعان، {إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ} [الممتحنة: 4]، لقد كانوا مؤمنين بالله ولكن ما كانوا موحدين بالله ، لا بد من الإيمان بالله وحده.

قال: قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: مَعْنَى الطَّاغُوتِ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ: هذا في الواقع هو أحسن وأجمع تعريف للطاغوت ، وأصل الطاغوت لغة : صيغة مبالغة من الطغيان ، ومعنى طغى الشيء: أي تجاوز، كما قال الله عز وجل: {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ} [الحاقة: 11] ، {لَمَّا طَغَى الْمَاءُ}: أي تجاوز منسوبه المعتاد في قصة الطوفان، {حَمَلْنَاكُمْ}: أي حملنا أسلافكم، {فِي الْجَارِيَةِ}: أي السفينة، فالطغيان معناه التجاوز، ولهذا عرَّفه ابن القيم –رحمه الله– بقوله: **مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ**: كل إنسان له حد، لا يمكن أن يتجاوز حده، كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم– لابن صياد قال: (اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ)(١)، فكل إنسان له حد.

قال: مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ : المقصود بمن معبود: يعني ممن رضي أو دعا إلى عبادة نفسه ، أما لو كان معبودًا بغير رضاه ؛ فهو برئ ، فعيسى عليه السلام وأمه والع زير برآء، ولا يدخلون تحت هذا الحد ؛ لأنهم ما عُبدوا

(١) صحيح البخاري (1354)، مسلم (2924).

برضاه م، حاشا وكلا، والملائكة أيضًا ما عبدوا برضاهم، إذن من معبود -كما سيفصله لاحقًا- إما: أن يكون دعا لعبادة نفسه أو رضي أن يعبده غيره.

قال: أَوْ مَتْبُوعٍ: يعني يُتبع في غير هدى من الله ، كما يحصل من الأحبار والرهبان وعلماء السوء الذين يحلون الحلال ويحرمون الحلال فيتبعوهم، لما دخل الصحابي عدي بن حاتم على النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يقرأ قول الله تعالى: {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ }[التوبة: 31] قال: (يا رسول الله ما عبدوهم، -ظن أن العبادة هي الركوع والسجود- قال: ألم يكونوا يحلون لهم الحرام فيتبعوهم، ويحرمون عليهم الحلال فيتبعوهم قال: بلى، قال: فتلك عبادتهم)، وكذلك علماء السوء الذين يسوغون للناس أو للحكام الحكم بغير ما أنزل الله، وإفساد الدين وتسهيل الشهوات، فكذلك يدخلون في حد المتبوع.

قال: أَوْ مُطَاعٍ: أي من كان له سلطان فأطيع على غير هدى من الله عز وجل ، ودعا إلى طاعته في خلاف ما أمر الله؛ فإنه يدخل في حد الطاغوتية، فهذا التعريف الذي ذكره ابن القيم -رحمه الله- يجمع أنواع الطغيان.

والله أعلم.